

أسنة
الضياء

بورح عابري

أم جليل مهني



أسنة
الضياء

بوم حابر

أم جليل مهني

إهداء

إلى أبناء أمتي الإسلامية المجيدة أهدي هذا الكتاب

أم جليل مهني

كلمة لا بدّ منها..

بين دفتي هذا الكتاب الأنيس، تجتمع تأملات وخواطر خُطت بحبر التجربة والتفرس، فتجلت فيها خبايا النفس، بلحظات صفائها وفصول صراعاتها، بملامح الإنسان كما عهدناه، في ضعفه وقوّته، في خيبته ونهوضه، في صدقه وتناقضه.

إنه بوح القلب حين يستشعر المسؤولية، وبوح الفكر حين يتأمل في المشاهد الملهمة، وبوح الإنسان حين يحاول أن يفهم نفسه والعالم من حوله.

هي صفحات تحكي عن الواقع كما هو، وعن الإنسان كما هو، دون تكأّف ولا تزيين، تسعى لأن تلامس وجدان القارئ وتستثير فيه ما خمد من إحساس أو تأمل.

"بوح عابر" ليس عبوراً عادياً، بل عبوراً في عمق النفس والواقع، في تفاصيل صغيرة نغفل عنها لكنها تصنع فينا الكثير.

هو محاولة لتسجيل لحظات صدق، تمرّ بنا سريعاً، فنلتقطها
بالكلمة قبل أن تضيع في ضجيج الأيام.

لقد عهدت كاتبتة "أم جليل" سباقاً لميادين البذل والعطاء،
عنيده أمام دعوات التثبيط والخذلان، مقمامة على ثغور
العمل حين يذكر الإسلام، فأسال الله تعالى أن يتقبل منها
أعمالها، ويبارك فيها، وينفع بجهودها المسلمين
والمسلمات، وأن يجعل من رباطها على ثغرها، جهادا موجبا
للمرفعة والفتوحات.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. ليلي حمدان

هل رأيتم حبيبا يعذب حبيبه؟

إن البشر الذين جمعهم هذا الرابط الروحي لا يليق بهم ذلك؛ فكيف برب البشر الودود الذي يتودد لعباده وهو الغني عنهم؟

وأما الابتلاءات، فهي سنة إلهية جرت على عباده المؤمنين؛ لتهيئتهم حتى يكونوا سكانا للجنة، والجنة لا تقبل إلا طيبا، ولا تشاق إلا للمنكسرة قلوبهم، المرتجفة أرواحهم في طريق العبودية لله رب العالمين.

السائرون إلى الله لا يلتفتون

إذا رأيت من نفسك كسلا في طاعة، أو رغبة تدفعها شهوة، أو اضطرابا موصولا بشبهة؛ فاضرب عليها بيد من حديد، فقد تورّدك شرّ الموارد.

إذا كنت سائرا إلى مولك، ثم حدثتك نفسك بزخرف دنيوي زائل، من حبّ في الظهور، أو رغبة في الثناء، فالزمها الطاعة، واشدد عليها كما يشدّ السيد على العبيد، فالسائرون إلى الله لا يلتفتون.

وقود الأحرف والكلمات

إذا امتلك الكاتب روحاً ملأى بالمعاني، مفعمة بالصدق،
تكسوها البساطة؛ فستكفيه أبسط الكلمات ليطير بهذه
المعاني إلى القلوب.

فليكن أول ما يتعلمه الكاتب أن يكون على سجيته؛
فيخاطب من هو أمامه بلا تكلف أو تعقيد. وليعلم أن
المعاني هي وقود الأحرف والكلمات، وأن أقوى الكلمات
وأغربها لا معنى لها بلا وقود.

صداقة بين السّطور

قد يحدث أن تقرأ نثراً، فيشدّ عقلك حسن بيانه، ويأسر قلبك صدق حروفه، فتتبع كتابات صاحبه، فإذا هو ينبهك تارة، ويشدّ أزرعك تارة، وينير طريقك ويفتح بصيرتك تارة أخرى.

واعظ بلا صوت، ورفيق بلا حضور، وصداقة بين السطور تحرك مشاعرك بدعوات في ظهر الغيب، لهذا الذي بلغ منك ما لم يبلغه الوُعَاظ بمواعظهم، ولا الخطباء بخطبهم. فيا معشر الكُتّاب، أحسنوا صحبة إخوانكم، دثروهم بكتاباتهم، وزمّلوهم بصدق حروفكم، فلا أحزّ على القلوب ولا أراف بها، من كلمة صادقة خالصة لله رب العالمين.

جنود مجنّدة

إن من أعجب ما رأيت، أن يرد عليّ المعنى فأكتب عنه، ثم
أنا بين الكلمات والسطور أقرأ لإحداهنّ، فإذا هي كتبت
عن المعنى نفسه، وفي الوقت ذاته.
فسبحان من جعل الأرواح جنوداً مجنّدة تجمعها الكلمة
والمعنى.

الطريق واحد والوجهة نفسها؛ الله غايتنا

في لحظة وعي

في لحظة وعي، وعندما يضحي أحدهم بما يملك من أجل سد حاجة أخيه، ولو كان به خصاصة؛ فإن بعضهم سيتهمه بأنه عاطفي بما يكفي ليكون غبيا، والحقيقة أنه ذكي بما يكفي، ليكون إنسانا لم يفقد مروءته.

مجاهدة

ما زال الإنسان في كبد مادامت نفسه الأمانة بالسوء تلاحقه، وشيطانه ليس بغافل عنه، وما زال سيف العبد يقطر دما في حربه معهما حتى يردى فتردى المجاهدة.

تذكر ستر الله عليك

ندرك جيداً ضعفنا كبشر؛ فنحن نخطئ مهما حاولنا أن لا نفعل. وإن كنا لا نخطئ فسيذهبنا الله ويأتي بقوم آخرين يخطئون فيتوبون فيغفر لهم. هذا ما جبلنا عليه.

الخطأ مدعاة للانكسار والتوبة، والانكسار والفقير والذل بين يدي رب العالمين هو غاية الوجود كله، {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}.

ولكن مهلاً مهلاً، لا يكون الضعف فينا عنراً نرفعه كلما حدثنا أنفسنا بالمعصية، أو أصبنا منها. فلنعرف قدر الله ولا نجعله أهون الناظرين إلينا، ولنذكر ستره علينا إذ هممنا بالمعصية في الخفاء، والناس تشير إلينا بالبنان في العلن، وترانا أكرمهم وأتقاهم. ولننتذكر الرحمن الرحيم حين يدلي علينا رداء الستر، فلا يهتك ما بيننا وبين الخلائق، حتى لا تضع هيبتنا بينهم، ولا تخبو محبتنا في قلوبهم.

علينا نحن البشر أن نصلح ما بيننا وبين ربنا، ونراقب خطوات الأقدام، وخواطر القلوب، ونظرات العيون، وما تخفي الصدور، وما تلفظ به الألسن، وما تتحرك به الجوارح، ونضبط ذلك كله بما يرضي الله؛ فليس في الوجود أنقى ولا أرقى من أن يعتني العبد بما بينه وبين خالقه، فلا يصيب شيطانه أو هوى نفسه منه شيء.

يا أهل غزة

يا أهل غزة، إذا اشتد عليكم ظلام الليل، وظلام البحر، وظلام بطن الحوت، وغزة في بطن الحوت، فنادوا في الظلمات: لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين، وأبشروا ببركات: {فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}.

يا أهل غزة، إذا اشتد عليكم السقم، ونخر في عظامكم الألم، ونزفت الجراح، ولا دواء ولا بلسم، وفقدتم المال والأهل والولد؛ فنادوا في الأفاق: ربنا إنا مسنا الضر وأنت أرحم الراحمين، وأبشروا ببركات: {فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}.

يا أهل غزة، إذا اشتد عليكم الكرب، واستحكم فيكم الحزن، وبلغت القلوب الحناجر، فلم تقوى على الكتم، فنادوا: {... إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}. وأبشروا بفتح ونصر قريب

يا أهل غزة، إذا سعى العدو خلفكم سعياً، ولاحقكم حيثما رحتم، ولسان حالكم {...إِنَّا لَمُنْرِكُونَ}. فنادوا بملء القلب والوجدان: {... كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}. وأبشروا ببركات: {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ}.

يا أمة الإسلام، إذا اشتد الوهن، وتسلط الأعداء، وكثرت الغوغاء، فاعتصمي بحبل الله المتين، وسنة نبيه الكريم، واركبي سفينة التوحيد، وأبشري ببركات: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَفْلَحِي وَغَبِضِ الْمَاءُ وَقَضِيَ الْأَمْرُ وَأُسْتُوتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

يهود؛ مثال الانحطاط

إن المجازر التي يرتكبها اليهود في حق أهلنا في غزة، تجعلنا نتأمل في التركيبة السيكولوجية لهؤلاء البشر، الذين لم تشهد البشرية انحطاطا أخلاقيا عبر التاريخ مثل انحطاطهم.

كنت أفكر كم صبر سيدنا موسى عليه السلام، وكم لاقى من الأذى والخيانة من هؤلاء.

لقد بتنا ندرك أن دخول الحجر والشجر في المعركة الحاسمة لم يكن أبداً بمحض الصدفة؛ إنه مظهر معجز من مظاهر عدل الله، والله غالب على أمره.

هنيئاً لمن سبق

أين ذهبت دعواتنا، مناجاتنا، تضرّعتنا، استغاثاتنا؛ لنصرة الإسلام والمسلمين؟
 أين ذهبت ركعاتنا، سجداتنا، دمعاتنا، حشرجات قلوبنا و أرواحنا التي كادت تختنق؛ ونحن نرجو العزّة والتمكين لهذه الأمة؟

الدعوات هناك عند رب حفيظ، لا زالت كما هي غضة طرية، مفعمة باليقين والإيمان، تنتظر استكمال أسبابها وشروطها، لتصير واقعا معاشا كما عاشه الرعيل الأول تماما؛ خلافة على منهاج النبوة.

وإن من أسبابها وشروطها أن نتحرك ونجدّ في المسير، وأن نتمرد على قيود الشيطان، كُلُّ من موقعه، وكُلُّ حسب استطاعته.

فهنيئاً لمن سبق، هنيئاً لمن سبق.

البدار البدار

إن المتابع لمواقع التواصل الاجتماعي يرى حجم المحتوى الديني والتوعوي، ومقارنته لمحتوى أهل الباطل والتفاهة والأهواء.

ولا شك في أن صناع المحتوى الذي يبني أخلاق وقيم الأمة هم أبطال وسائل التواصل الاجتماعي (السوشل ميديا) وفرسانها. ولا يليق بالفارس أن يدعو إلى الخير والفضائل، بينما هو عارٍ منها!

فعلى كل فارس؛ أن يتحلَّى بقدر من المسؤولية، وألا يكون كمن قال الله فيهم {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَلُونَ الْكُتُبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

فالبدار البدار يا أبطال وسائط التواصل الاجتماعي، إذا حدثتم عن العلم وطلبه؛ فكونوا أول الناس مزاحمة لأهله. وإذا حدثتم عن الأخلاق والقيم؛ فكونوا أحرص الناس عليها وأولى بها. وإذا حدثتم عن العبادات وتركية النفوس؛ فكونوا الأجدر بذلك. واعلموا أن أهل الإخلاص وحدهم من يثبتون، أما البقية فسحابة عابرة أو عاطفة ما تفتأ أن تزول.

القرآن أقوى من فرنسا

عام 1830 للميلاد، سقطت الجزائر في حكم الغزاة الفرنسيين، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ هذه الأمة، يُسَدَل فيها الستار عن نضال شعب متشعب بمبادئ دينه، ويفضح معدن فرنسا الذي زينته بشعارات رنانة، حتى خيل للرائي أنه ذهب، ولم يكن إلا حديدا صَدِينَا ورثته جيلا بعد جيل.

لم تتوانى فرنسا لحظة واحدة منذ وطئت أقدامها أرض الجزائر المسلمة في سفك الدماء، وسلخ الجلود، وحرق الأجساد، واغتصاب النساء، وقطع الرؤوس.

وإن ما نراه اليوم في غزوة من مجازر لا تطاق، ليس جديداً على هذه الأمة؛ بل إن ما حدث من جرائم يندى لها الجبين في الجزائر، وغيرها من البلاد الإسلامية عبر التاريخ، لهو مقام تفكر لكل ذي عقل لبيب، فهذه الأمة لم تبق ثابتة واقفة على رجليها منذ نشونها إلى يومنا هذا بتلك البساطة.

لقد تحملت الأمة عبر التاريخ هم هذا الدين؛ فبذلت الغالي والنفيس من أجل أن تنقله إلينا غضا طريا، صافيا نقيا. وعلينا نحن مسؤولية حمل الأمانة ونقلها إلى الأجيال القادمة، جيلا بعد جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ونتحمل في سبيل ذلك ما تحمله صفوة الخلق وتابعيهم وتابعي تابعيهم.

خطر على بال الغزاة خاطر، فشحذوا همهم، فصار خاطر فكرة، والفكرة خطة محكمة لطمس هوية الجزائر. حولوا المساجد إلى كنائس، أحرقوا الكتاتيب، منعوا تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، نشروا الجهل، وشجعوا الحملات التبشيرية وتعليم اللغة الفرنسية. فهنا الحاكم الفرنسي في الجزائر يقول: (يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم؛ لننتصر عليهم).

ثم بعد كلِّ هذا عمدوا على تجربة ميدانية لإثبات قدراتهم، وإشباع غرورهم؛ فاختاروا مجموعة من الفتيات المسلمات وأدخلوهن المدارس الفرنسية لسنوات طويلة، علموهن فيها

لغتهم، ولقنوهن قيمهم، وألبسوهن لباسهم، حتى إذا حان موعد التخرج، جاءت فرنسا بخيلائها ممثلة بكبرائها ووجهائها وإعلاميها في حفل بهيج، لتثبت للعالم أجمع أن الهوية قد طمست، وأن الجزائر قد استحالت فرنسية اللغة والمعتقد.

كان الكل سعيداً منبهراً مترقباً، وفي ساعة الحسم تخرج فتيات الجزائر المسلمات بلباسهن الإسلامي الجزائري " الحايك "؛ فينهار غرور فرنسا ويصاب كبرياؤها في مقتل، ويصيح الإعلام في ذهول: ماذا كانت تفعل فرنسا طيلة قرن وربع قرن من الزمان؟!

وفي لحظة انكسار مهين، وقف وزير المستعمرات الفرنسي لاكوست قائلاً: وماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟

أي نعم، ماذا يفعل لاكوست إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟

ماذا يفعل شارل ديغول، وبوهير، وبومبيدو، وديستان، وميتران، وشراك، وساركوزي، وهولاند، وماكرون، إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟ وماذا يفعل الذين أشبعوا العجل الفرنسي في قلوبهم، إذا كان القرآن أقوى من سامري فرنسا وعجل فرنسا؟

وتبقى هذه الأمة عزيزة شامخة، تقطع رؤوس الغدر إذا أينعت؛ فلا شيء يعلو فوق راية التوحيد.

حقيقة

وما زالت الخيبات تأتيك من كلِّ شيء، حتى تعلم أن هذا القلب لا يصلح إلا لحب الله والتعلُّق به، وأن الروح لا يليق بها إلا أن تسرح في عليانها، وتتحرر من قيود العالم السفلي، وأن النفس لا يصلحها إلا اليقين بالآخرة، وأن الدنيا أحقر من جناح بعوضة.

فيا رب، اجعل حالي مع الدنيا وأهلها كطيرٍ يلتقط الحبَّ من الأرض على خوفٍ ووجل، ثم يطير بعيداً وقد حصل خيرها وأمن شرِّ صيَّادها.

احتياج

للإنسان احتياجات معنوية كثيرة عند غيره، كونه اجتماعياً بطبعه، ومن دعا بأن لا يحوجه الله إلى أحد فقد دعا على نفسه، فهو بذلك يخالف فطرته.

للإنسان احتياج عند والديه لا يلبيه غيرهما، واحتياج عند أخيه وأخته وعائلته لا يلبيه غيرها، واحتياج عند الزوجة أو الزوج لا يلبيه غيره، واحتياج عند إخوته في الله لا يلبيه غيرهم. أما احتياجه إلى الله؛ فهو أعظمها وأكملها؛ إذ يلبي كل الاحتياجات الظاهرة والباطنة.

فمن فقد والديه؛ فالله يكفيه، ومن فقد أنس العائلة؛ فالله يكفيه، ومن فقد الزوج أو الزوجة أو لم يكن له نصيب في ذلك؛ فالله يكفيه، ومن فقد الأصحاب؛ فالله يكفيه. فلا تياس مهما كان احتياجك؛ فالله سند من لا سند له، ومأوى من لا مأوى له.

علموا أبناءكم الأدب

إن لم تعلّمك الجامعة الأدب، فهي لم تجبرك على أن تكوني راقصة في حفلة تخرج.

إن سوء الخلق الذي نراه من بعض الخريجات أو طالبات الجامعات، لا تتحمله الجامعة بقدر ما يتحمله جمل استنوق، وأم لم تستحق وسام الأمومة.

يا معشر الآباء والأمهات، أحسنوا تربية أبنائكم، وتهذيب أخلاقهم. وقدموا لرسالة العلم قلوبا تقيه تحسن حمل معانيها، لا قلوبا خربة تعثرها بالتراب.

الزم ثغرك وكن طوفاناً

إذا أقامك ربك في ثغر من الثغور فالزمه، وكن فيه طوفاناً
متعطشاً للإنجاز، ولا تتوقف عن ذلك أو تعجز حتى آخر
نفس فيك.

أر ربك منك خيراً ولا تغترّ بإنجازاتك؛ فما أنت إلا عبد ذليل
وقف على باب سيده يتلمّس العفو والقبول.

أين القائد؟

كُنْتُ تتساءل طوال الوقت أيها البطل: مالي لا أرى إلا
الشعب هنا؟ أين القائد، وابن القائد، وعائلة القائد؟ لقد
باعوا، لقد تركوا.

لقد مات القائد يا بطل، ومات ابن القائد، وماتت العائلة،
فخبرنا: أين أنت؟

سبق

بينما نحن في طريق عودتنا إلى البيت بسيارتنا المتواضعة،
إذ تمر علينا سيارة بسرعة البرق، فنتجاوز الجميع ثم
تختفي عن الناظر بلمح البصر، فلم يَبْقَ لها أثر.

_أبو العيال: ما شاء الله! يا سلام! هذا هو المركب، ونعم
المركب!

لم يَغِبْ عَنِّي ذلك المشهد، وقد أَطْرَقْتُ وِغَصْتُ في أفكارِي
وتأملاتي.

_أبو العيال: ما بالك؟ ما هذه الكآبة، والحزن المفاجئ؟

_أنا: تخيلت ونحن في طريقنا إلى الله، وإذ بأحدهم يخترق
الصفوف ويمضي إلى مبتغاه؛ فيسبق الجميع كَمَثَلِ هذا،
بينما نحن نمضي على مَهَل.

_أبو العيال: المهم أننا في الطريق فلم نحد عنه، وما أقرب
الوصول وإن طال.

_أنا: لكن قلبي لا يحتمل هذا؛ أفلا نكون مع هذا
المركب؟ ونعم المركب.

قاتل

مهما كان علمك، غناك، عبادتك، جاهك ومقامك بين الناس؛ فلا تحسبن أنك خير من أحدهم. تفاضل الناس بالتقوى، وهو أعلم بمن اتقى؛ فاستل سيفك وقاتل علانق النفس، وعوانق الطريق. قاتل ثم قاتل ثم قاتل، وادعُ ربك أن تكون خير الناس وأكرمهم وأتقاهم.

جندي الله

يا من جعل نفسه وقفاً لخدمة هذا الدين، تذكر أنك جندي عند الله، ولست جندياً عند أحد. فلا تطلبن رضى من قد مدح، ولا تبتئس بدم من قد قدح. وما وافق رضى الرحمن فذاك، وإلّا فالقطيعة القطيعة. أنج بنفسك.

مهمّة وحيدة

أعتقد أننا معشر الكُتّاب العاملين لدين الله أمام مهمّة وحيدة، فإن تمّت فالباقي مكفول.

ليس بالضرورة أن نرى أثراً، وقصّة نجاح لما نكتب، فقد يتخطّفنا الموت ولا زالت كلماتنا حبيسة أوراقنا، وكتبنا طواها النسيان. ثم يُكتب لها حياة بعد ذلك؛ لما فيها من الإخلاص والصدق، وقد اطلع الله على قلوبنا، حين خطّتها أقلامنا؛ فيهدي بها خلقاً كثيراً، ويرفع ضلالة، ويصنع همّة تبني أمة، ونرفع إلى مقام لم يخطر على بال، ونحن رهن قبورنا.

الابتلاء مدرسة

من انتقص منك؛ فقد زادك من حيث لا يدري. زادك صبراً،
ثم زادك أجراً، ثم زادك إلى الله قرباً. وأذاقك مرارة الظلم،
فعلّمك أن لا تكون ظالماً فتنيق الناس ما قد ذقت.
الابتلاء مدرسة، وطوبى لطلابها النجباء.

الغفلة هي القاصمة

تكون مع ربك في حال؛ فإذا غفلت عن قرآنك قيد أنملة،
وحدت عن ذكرك لحظة واحدة؛ استغولت نفسك، واستأسد
شيطانك، ورأيت من الوسواس ما يثير الدهشة، ومن هبوط
الحال ما يجعلك تتساءل: هل هنا أنا الذي كنت قبل الآن
مع ربي في شأن؟
فالزم ذكرك وقرآنك؛ فإن سنن الله لا تحابي أحداً.

كاريزما أهل السَّبِق

أهل السَّبِق هم قوم طارت بهم هممهم، وحلقت بهم فوق السحاب، لا يُلِيق بهم إلا أن يَنَاطِحُوا العِلا، وأن يكونوا مع الجبال جبالاً. لا يعرفون كلاً ولا مللاً؛ فهم من حالٍ إلى حال، ومن مقامٍ إلى مقام. كالنحل؛ موطنهم ورد وريحان، وزهر وأقحوان، وعطاؤهم عسل مصفى، فيه شفاء للناس ولذة للشاربين.

أهل السبق هم خاصة الخاصة، لا يشبهون غيرهم؛ فهم أصحاب الكاريزما التي أعجزت عامة الناس.

فذاك عمير بن الحمام الأنصاري، لما سمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض" فقال: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: "نعم" قال: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يحملك على قولك بخ بخ؟" قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها.

قال: "فإنك من أهلها". فأخرج تمرات من قرن، فجعل يأكل منهن ثم قال: لأن أنا حبيت حتى أكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة! فرمى بما معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل. لم يصبر على أكل التمرات؛ وفي داخله فرس جموح في ميدان المسابقة. "وإنها لحياة طويلة!"

كنت سمعت عن زوجة الداعية الكويتي عبدالرحمن السميط رحمه الله، تلك المرأة الفاضلة التي تبرعت بكل ثروتها في سبيل الله، ولم يكن لها إلا ثوبين ترتديهما، وقد خاطبتهما بنفسها. لعل أغلب الناس لن يقدر على فهم أو استيعاب موقفها هنا، ولن يتصور نفسه فاعلا ذلك؛ بل منهم من يراه غباء أو سوء تصرف في المال. ولا عجب في ذلك؛ فزوجة السميط من أهل السبق وأصحاب الكاريزما التي تعجز عامة الناس؛ إذ أنها رأت الفضل والخير كله عند الله، فزهدت فيما بين يديها، "وإنها لحياة طويلة!"

أهل السبق لا يفكرون مثل العامة، وشغلهم شاغل ميدان المسابقة، وكيف يكون لأقدامهم خطوات عملاقة تقربهم أكثر.

يعملون أعمالاً قد لا تخطر على بال أحد، كأن يدعو أحدهم لمن ظلمه وتسبب له بالأذى، فيلهج لسانه بكل دعوة خير له في الدنيا والآخرة، أو أن يكون ماشياً في الطريق وقد رأى رجلاً لا يعرفه، قد انشغل بعمله وكسب رزقه؛ فيدعو له بينه وبين نفسه بكل خير ونجاح وسداد ورزق، أو أن فقيراً يمتدح أمامه صاحب الفضل المجهول الذي يعينه على نفقاته ومرضه، ولا يدري الفقير أن هنا الذي يقف أمامه هو صاحب الفضل.

أهل السبق عندما ينغمسون في أعمال الخير والتطوع؛ فإنهم ينسون أنفسهم وحاجاتهم من مأكّل ومشرب ونوم، ذلك أن لذة العطاء طغت على ألم فقد تلك الحاجات فلم يشعروا بها.

ومع كل هذا؛ فإن أهل السبق يدركون أن أعمالهم ليست من توصلهم لأعلى المقامات؛ فيتجددون من كل حول وقوة، ويسألون الله في انكسار وذل أن يوفّقهم إلى كل عمل يسابقون به ولا يحرمهم ذلك الفضل.

نسيج وحدك

ما أجمل أن تكون أنتِ أنتِ، نسيجاً وحدك، فلا تشبه أحداً.
يبهرني المتميزون جداً، وأحب أن أخطو خطوهم؛ لكن
بتميز يشبهني أنا لا هم. فكن متميزاً.

حدود جغرافية

تزوجت إحدى القريبات وانتقلت للعيش في المدينة كما كانت تتمنى، وصارحتني يوماً بتفاخر أن الله يعطي لكل إنسان حسب ما يليق به؛ فهي الطموحة الشغوفة بالحياة، يليق بها المدينة لتفجر طاقاتها؛ أما أنا فلا يليق بي إلا حياة القرى والأرياف؛ وقد زهدت في بهرج الحياة ولم ألق له بالاً أو اهتماماً.

ولم أجد جواباً وقتها إلا أن قلت: (ما بال الناس يربطون سعادتهم بحدود جغرافية؛ وما خلقت السعادة إلا لتكون حرة طليقة لا يحدها زمان أو مكان. وما دام قلبي بين جنبي فلا فرق عندي في أن أعيش على رأس جبل، أو في قلب أمريكا).

لذلك استثمر في قلبك، وتفكر بعقلك، وأنجز ما تطيق
بجوارحك، والقليل الذي بين يديك إذا أخلصت فيه لربك
فسيربيه، وينميه، وليرَفَعَهُ حتى يصير أعظم من كلِّ
عظيم. فتذكر.

قاعدة تربوية

كثيراً ما أسمع النساء يتحدثن عن قاعدة رهيبة في التربية، ويتواصين بها حيثما حللن ووجدن: "أشبعي أولادك بمتع الحياة من مأكّل ومشرب وملبس، حتى يكونوا شباعا في الحياة لا يغريهم شيء، ولا تكثري من القيود؛ فذلك سيجعلهم منفلتين من كل قيد عند أول تجربة انفتاح الدنيا لهم".

صراحة لم تقنعني هذه القاعدة، وأرى فيها الكثير من الخلط وسوء الفهم.

لقد عشت حياة بسيطة تنقصها الكثير من المتع في قرية منسية، ثم انتقلت فجأة للدراسة في الجامعة بمدينة كبيرة. كنت أقضي أياما طوالا في إقامتي الجامعية، بعيدا عن الأهل، وعن كل رقيب، وقد أحاط بي من بهرج الحياة ما لم أعتده في قريتي؛ لكن ذلك لم يغير من طباعي، ولم يشوّه فطرتي.

لقد كنت أرى انبهار الفتيات بكثرة التنزه والتسوق خارج أوقات دراستهن، ولم أكن أجد سعادتي إلا في غرفتي، أو مصلى إقامتي أو مسجد المدينة الكبير أيام الجمع.

أعتقد أن النساء أخطأن عندما اعتقدن أن الأبناء بحاجة إلى إشباع مادي حتى يكونوا في استعلاء وترفع عن كل مشين، والحقيقة أنهم بحاجة إلى إشباع بالقيم والمبادئ، حتى لو عدموا المتع ومظاهر الترف، ولا يكون ذلك الإشباع إلا بترسيخ تلك المبادئ في عقولهم، وإحيائها في قلوبهم، والتنقيب عن معانيها في حياة السلف الصالح، ثم رؤية مدى الفقد والحرمان في واقعنا بغيابها عن حياة الناس.

إذا تربي الأبناء على هذه المبادئ والقيم إشباعاً لا تلقيناً؛ فستحول في حياتهم من مجرد قيود إلى نبراس يهديهم سواء السبيل، وتجعل منهم معادن من ذهب، وكل المعادن تتغير إلّا الذهب.

أمره كله خير

إن أمر المؤمن كله خير، يصيبه الألم والغم، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ فيعرف ضعفه وفاقته، وحاجته الدائمة إلى ربه، ويدرك حقيقة الدنيا وحقارتها، وأن العيش عيش الآخرة؛ فيصبر لحكم ربه ويزداد قربا إليه، ويجبر الابتلاء روحه بقدر الكسر الذي جزه عليه، ويداوي اعوجاج نفسه بقدر حضور قلبه وفهمه عن ربه.

ثم يكشف الله همّه، ويؤتيه من النعم والأرزاق ما لم يخطر على بال؛ فيدرك أن هذا ابتلاء آخر له، أي شكر أم يكون من الجاحدين! فيلهج لسانه بالحمد، ويلين قلبه وينوب حبا مما شاهده من جلال الله وحكمته فيما جرت به المقادير، وتتحرك جوارحه مُستعملة غير مُستبدلة، تحرك كل نعمة وتوجهها في سبل الخير، وتسير بها مقبلة غير مدبرة نحو منازل الصديقين والشهداء.

فالفقد والحرمان عند المؤمن؛ مدعاة للصبر والرضى عن الله والقرب منه. واليسر والرغد والرخاء؛ مدعاة للشكر والوقوف على محارم الله، وزيادة البذل والعطاء في طريقه. ولا زال المؤمن بخير ما دام يتقلب بين صبر وشكر؛ حتى يلقي ربه على ذلك.

ميادين السبق

عندما يفخر أهل الشهادات بشهاداتهم وألقابهم، فإني لا أجد فخرا لي إلا ما أنجزه في الميدان، فإن عجزت عن ذلك؛ نال مني الإحساس بالتخلف في ميادين السبق، وقد أوشك السابقون على بلوغ المنزل.

ما تعلمته

كتب الله لي أن عملت فترة من حياتي في عمل دعوي جماعي، فكان أعظم ما تعلمته أن الفراغ قاتل، وأن العمل شفاء، وأن مراقبة الله نجاة، وأن الجندي الحقيقي من يستشعر أنه مجند عند ربه قبل أي أحد.
من سار على هذا حلق به سعيه، ومن أخل به فقد خاب وخسر.
اللهم اجعلنا من جنديك.

اختبار صدق

ما زال الابتلاء مصاحباً للعبد المؤمن في أدق التفاصيل لا ينفك عنه أبداً، فاختبارات الصدق كظله حيثما حلَّ حلَّت معه. فإن وجدت في نفسك ذلك؛ فاستمسك بما ينجيك. وليس هناك من منجاة للعبد خير من أن يتجرّد من حول نفسه وقوتها، ويفر إلى حول الله وقوته. فالنفس خداعة، إن طابت لك اليوم غدرت بك غداً.

انسحاب

أجمل انسحاب في الوجود، أن تنسحب من ضوضاء العالم
المحيط بك إلى كهفك ورَبْوَتِكَ؛ تناجي ربك، تبثه أحزانك
ومتاعبك، وتشكو إليه سطوة نفسك، وترجو منه رحمة
وهداية تغنيك عن كل البشر.

أجمل انسحاب؛ انسحاب من صخب عالم بانس إلى هدوء
وسكينة محاريب الخلوات.

علمتني الحياة

علمتني الحياة أن تعليق الآمال بالبشر ضرب من حماقة والجهل؛ فمهما صدقوك حبهم وتقديرهم، فضعفهم يسبق ذلك.

تعتقد أن فلاناً لن يخذلك أبداً، ويأتي يوم تشعر فيه بالخذلان من طرفه، ليس لأنه غدر بك؛ ولكنه ضعيف قد يعجزه أن يكون عند ظنك في لحظة غفلة منه، أو جهل، أو ظرف وارد.

حينها ستنكسر وترجع إلى ربك، فتدرك أنه أعظم وأكمل من علقت به الآمال.

استغناء بالله

إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا}. انظروا إلى عظم وجلال المعنى، والذي يخفي بين طياته الكثير من الاستغناء بالله والاستعلاء به.

عندما يتعرف العبد على ربه، ويستشعر عظمته وجلاله، ثم يقارن ذلك بضعف النفس البشرية وجهلها وحقارتها؛ يدرك أن البذل لا يكون إلا لله وحده، والطمع في الجزاء لا يكون إلا فيه.

أما البشر فهم أعجز عن نفع أنفسهم، مهما بدا للناظرين من قوة فيهم، واشتداد في سواعدهم. فهل نفعت فرعون جنوده، وهو ملك من ملوك الأرض؟ وهل نفعت قارون أمواله وهو أغنى أغنياء الأرض؟ وما فعل ملك النمرود لنمرود وقد هزمته مجرد حشرة حقيرة؟

فما أسوأ أن تبذل الجهود والأوقات لغير الله العزيز الجبار!

أهل السماء وأهل الأرض

فقط أهل السماء من يستحقون أن تقاتل وتستميت لأجل أن يذيع صيكتك بينهم؛ أما صيكتك عند أهل الأرض فغير مهم، إذ لا يقدر ولا يؤخر.

أهل السماء معاييرهم سماوية متصلة بالله، وأهل الأرض خطأون متغيرون وأعجز عن نفع أنفسهم.

أهل السماء هم أهل الصدق فلا يرفعون إلا صادقاً، وأهل الأرض فالأهواء تحكمهم، وحب الدنيا دينهم، ومن صدق فيهم فما يزال في غربة إلى أن يوسد في التراب.

فطوبى لمن عرفه أهل السماء وجهله أهل الأرض، طوبى للأخفاء الأنقياء الأتقياء.

حسبي اسمه شفاءً وبلسماً

ينظر المؤمن إلى واقعه، فيرى أكواماً من المصاعب والعوائق، أذهلت روحه، وأعجزت عقله، ثم يذكر اسم "الله"؛ فإذا بظلامه يشرق، وليله يستحيل نهاراً، وإذ بالعوائق تذوب وتتهاوى في مخيلته؛ وكأنها كتلة من جليد أحرقتها سبحات من نور.

فحسبِ القلوبِ المتعبة اسمِ "الله" شفاءً وبلسمًا، وبوصلة ومعلمًا، ونورا في عالم قد أظلم.

أمجاد لا تعيننا

يستعد أهل المغرب العربي هذه الأيام للاحتفال برأس السنة الأمازيغية الموافق لـ ١٢ يناير. تحذوهم السعادة ويأسرهم الفخر بذكرى انتصار الملك الأمازيغي شيشناق على رمسيس الثالث فرعون مصر، واستبشارا بسنة فلاحية فكرتها مستوحاة من العهد الروماني الوثني.

واني أتعجب كيف يرضى مسلم أن يحذو حذو من أشرك بالله من الأمم السابقة ولو تشبها! وأعجب العجب أن يفخر الأمازيغ بشيشناق الكافر، وأمجاده التي لا تعيننا؛ بينما هم غافلون عن قادة الأمازيغ الذين صنعوا أمجاد الأمة الإسلامية؛ أمثال طارق بن زياد، ويوسف بن تاشفين، وأبو بكر اللمتوني، وعبد الله بن ياسين!

واني لا أجد ما أقول لقومي من الأمازيغ وفي عرق من عرقهم، ودم من دمهم، إلا كما قال موسى عليه السلام لقومه: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير}.

المطية التي لا تقهر

لا أدري أي عمل يقربني إلى الله أكثر، ويجعلني أسبق في طريق السائرين إليه، والذي لا يخلو من مؤمنين يسابقون إلى ربهم بشراسة؛ ولكنني موقنة أن حالة العبد عند أداء العمل، ومدى استشهاده للعبودية والذل بين يدي الله؛ ستجعله بلا شك في عليين مهما كان العمل بسيطاً تافهاً في نظر البعض، حتى وإن كان بضع كلمات أخطأها في مقال، أو حتى أقصوصة أنسج أحداثها لطفل صغير.

فالحمد لله الذي منح فرصة المسابقة للجميع، وعرفهم بسر المطية التي لا تقهر، وتغلب فلا تغلب، مطية العبودية الخالصة لله رب العالمين.

لا نامت أعين الجبناء

الفرصة قائمة، وقلبك بين جنبيك، وربك من فوقك يناديك.
فماذا تنتظر لتكون أنت أنت؛ يحتفي بك أهل السماء،
وتطلبك جنة وفردوس ومنازل في عليين؟

فلا نامت أعين الجبناء، ولا عزاء للمفرطين المتخاذلين.

عبودية

إذا أراد الله بعبد خيراً؛ أذاقه معاني العبودية له، فيستشعر
بذلك جمال وجلال الحرية وانطلاق الروح في هذا العالم
الفسيح، ويدرك تفاهة كل لحظة عاشها لغير الله، والتي لا
تعدو أن تكون قيد ذل في سجن حقير.

التفقه في دين الله

كل يوم يمر علي أتيقن فيه وأدرك أن من علت همته،
ورزق حب البذل لدين الله، ووجد في نفسه انطلاقا في ذلك؛
فحرام عليه ألا يتعلم ويتفقه في دين الله، ويبحر في ذلك
إلى أبعد حد.

فهيمته كالحصان الجموح، ستسوقه رغماً عنه إلى مهمات
أكبر منه أو تحدثه بها في كل وقت وحين، حينها سيجد
نفسه عاجزا على أدائها لقله علمه وفقهه، ولن يكون في
وسعه إلا البكاء والحسرة.

فاستغلوا أوقات فراغكم في طلب العلم قبل أن تنشغلوا فلا
تجدوا إلى ذلك سبيلا، ثم انطلقوا في ميادين العمل بكل
إخلاص وإيمان.

فمن غرس شجيرة العمل، وأحاطها بسياج العلم، وسقاها
بماء الإخلاص؛ فقد نمت وعلت وأزهرت، كشجرة طيبة
أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن
ربها.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا اللهم علماً.

خذلان الله

خذلان الله عبارة مرعبة جدًا؛ فإذا خذلك الله فقد وكلك إلى نفسك، وإذا وُكِّلت إلى نفسك وحولك وقوتك فأبشر بالذي يسوؤك.

فتلك التي بين جنبيك أعدى أعدائك، وما غفلت عنها إلا أوردتك شر الموارد؛ فيها اجتمع الجهل وإن علمت، والفقر وإن ملكت، والضعف وإن قدرت، ولا حول ولا قوة لها إلا بالله وحده.

فاسألوا الله التوفيق واقتفوا أسبابه، واستعينوا به من خذلانه؛ فإذا خذلنا فماذا بقي لنا إذا؟

حنان الله

حنان الله ليس كمثله شيء؛ تلك الرحمة الإلهية التي تستشعرها بداخلك، وقد هيمنت عليك واحتوتك بما فيك.

فترى ضعفك وجهلك وفاقتك، وترى في اللحظة ذاتها قوتك عندما تأوي إلى ركن شديد اسمه الله، وكأنه يربت عليك ويطمئنك؛ لا تخف {فإنك بأعيننا}.

الذكاء الاصطناعي

أرى أن الذكاء الاصطناعي سيكون أداة مذهلة ورائعة إذا تم الاعتماد عليه في تحليل البيانات والمعطيات، ودراسة الأوضاع من أجل إعطاء رؤية وتصور لكل الحلول الممكنة للمشكلات.

لكن أن يعتمد عليه في التنظير وزيادة حجم المحتوى الإسلامي، الذي هو مكسب بالأساس بالكتب والمواقع والعقول، دون أن يجد من يحوله إلى عمل وواقع ملموس؛ فهذا في حد ذاته غباء مركب - غباء اصطناعي وغباء بشري-.

وتبقى رسالتنا الحقيقية رسالة عمل وإنجاز وتحويل المحتوى الإسلامي النظري المكسب والخامل إلى مشاريع عملية تساهم في بناء نهضة الأمة.

هؤلاء هم السابقون حقاً

السابقون إلى الله لا يعرفون أنهم كذلك مهما بلغ حجم أعمالهم وجهودهم في طريق الخير؛ لأنهم يعتقدون أنهم أسوء خلق الله إن لم تتداركهم رحمته.

السابقون إلى الله لا يحسدون ولا يبغضون أحداً. لا تهمهم مقامات الدنيا، وإن رأوا أحدهم في مقام صدق وإيمان ومسابقة إلى الله؛ فرحوا له، ثم حزنوا على أنفسهم وأصابهم الهم والنكد خوف أن يكونوا من المُخَلَّفِينَ.

السابقون إلى الله لا تهمهم المناصب، فإن كانوا في الحراسة؛ كانوا في الحراسة، وإن كانوا في الساقية؛ كانوا في الساقية. لا يهتمهم إن طردوا بالأبواب؛ فلم يؤذن لهم، أو إذا شفعوا لم يشفع لهم.

إنما همهمم الذي أقض مضاجعهم وجعلهم في حزن وبكاء
 دائم: "هل أنت راض عنا يا رب"؟ وشعارهم الأبدي: "إن لم
 تكن ساخطاً علينا فلا نبالي". ونِعْمًا ما نطقت به رابعة:
 لبيتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
 وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب
 إذا صغ منك الودّ فالكل هين وكلّ الذي فوق التراب ترابُ

كم أنت جميلة يا غيمة!

كم أنت جميلة يا غيمة! رأيتك تحثين السير، تقتحمين المدى، تبثين قطرك في هذه القفار، ولسان حالك: "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى... " يسعى؟! نعم يسعى؛ إنها الإغاثة، والدعم السريع الذي لا يعرف المماطلة.

لكنك رحلت يا غيمة، دون أن أنتبه، أو ينتبه أحد، وكأنك تستعجلين الرحيل... فما حاجتك إلى المكوث وقد أفرغت جعبتك، وأديت ما عليك من واجب الإسناد؟ ما حاجتك لمدح مزارع قد أحييت قطراتك أرضه، أو ذمّ سائح رأى أنك أفسدت عليه فسحته وإشراقه يومه؟ ما حاجتك للذين لا يابهون أصلا، ولم يشعروا بوجودك حتى؟!!

لتعلمي يا غيمة أنني مولة بك، بكبرياتك، باستغنائك... فخذيني إليك، لأكون قطعة منك، أرحل دون أن يشعر بي أحد، فإذا اخضرت الأرض وأزهرت... قيل: "غيمة مرّت من هنا".

ليتنا نستطيع تأليف الرجال!

في زمن مضى كان يحزنوني شغف عجيب لقراءة كل شيء مما هو متاح بين يدي، كتاب، مجلة، جريدة، أو حتى ورقة لا قيمة لها تعبت بها نسمات الهواء بين الطرقات...
وكم كانت نشوة السعادة تملأ قلبي وتحلق بروحي لمجرد انطباع معنى جديد في داخلي مما أقرأ... وكان كل فكرة تفتح لي نافذة إلى عالم آخر.

اليوم وبعد بلوغي هنا السن لم أعد أجد في نفسي ذاك الشغف وذاك الحماس لقراءة كل شيء... لا أدري، ربما لكثرة انشغالي أو لأن رأسي لا يفرغ أبداً من أفكار تزدهم فيه...

لكن شيئاً واحداً قد صار أسراً لي ومسيطرًا علي: كيف يمكن تجسيد المعاني التي قرأتها يوماً، أو المعاني المخزنة في بطون الكتب؟!

كيف يمكننا جعل ذلك حقيقة في حياة الناس؟!
ليتنا نستطيع تأليف الرجال كما تؤلف الكتب!!

صاحبتي

واني لألمس الصّدق وتهبّ عليّ نسانمه من كلمات صاحبتي
 تنبض به. قد خطّها قلب شامخ بإيمانه وروح محلقة في
 فضاء اليقين الفسيح.
 حينها تلقّني سحابة حزن، وألوم نفسي كثيراً:

كم اقتربت صاحبتي وكم ابتعدت!

فأراني أنفض غبار الغفلة عني سريعاً، وأجدد النوايا وأنطلق
 كالسهم أرجو لحاقاً بالركب الفاضل.

تلك بركات الصحبة الصالحة، تذكرك بالله في حركاتها
 وسكناتها، في كلامها وحتى في صمتها، تسحبك حيث
 الجنة بيد حانية!

الكلمة... سم أو بلسم

عندما تتعمد قناة إعلامية إشاعة خبر استشهاد " صالح الجعفرراوي" أثناء تغطيته لاشتباكات بين حماس وعملاء للاحتلال بقولها:

" وفاة صالح الجعفرراوي في اشتباكات بين حماس وعائلة فلسطينية في غزة" أدرك خطورة الكلمة وأثرها في طمس الحقيقة وتضليل الناس!

كلمة من بضعة حروف يمكن أن تكون بلسما أو سما قاتلا! وشتان بين وفاة واستشهاد، وبين عائلة فلسطينية وعملاء!

خلافة

إننا بحاجة إلى أطباء أتقياء، وفيزيائيين أتقياء، وكيميائيين أتقياء، وبيولوجيين أتقياء، ومهندسين أتقياء، وتجار أتقياء، وصيادلة أتقياء، وحرفيين أتقياء ومزارعين أتقياء، وصناعيين أتقياء.....من أجل أن تستقيم حياتنا ونتخلص من التبعية البغيضة. إذ لا خير في أمة لا تصنع دواءها و غذاءها ولباسها وسلاحها و....ولا تعرف كيف تناوي مرضاها، أو تهندس عمرانها، أو تستخرج بترولها وثرواتها من تحت أرضها، إلا بتبعية واستنجد بجلادها.

ثم إن السعي للتفوق في هذه العلوم هو من صميم فهم الدين، وما العصر الذهبي لهذه الأمة والذي ازدهرت فيه علومها؛ إلا دليل واضح على الفهم السليم لموضوع خلافة المسلم في الأرض.

حديث القلب

*- وبعد طول إعراض رسا قلبي أخيرا عند صوت الحق،
فهنيئا لي قد صرت اليوم منتقبة.

*- كل شيء لا تنتفع به، ولا يقدم إضافة طيبة لحياتك؛
تخلص منه لأنه سيكون عبئا عليك.

*- إن سُلبت منا القدرة على فعل أي شيء، فلا أحد يحول
بيننا وبين الله.
سنقاتل مع غزاة بالدعاء، ولن نملّ أو نعجز.

*- أبشروا بالذي يسوؤكم يا تثار العصر، فإن سيف الدين
قطز على الأبواب. إنما هي مسألة وقت.

كثرة

لو نضعت الكثرة في الأعمال لنفع سواد مسلمين غزوة وهي تستغيث. إنما تنفع الكثرة إذا كانت مقترنة بحضور القلب وإخلاص المسير، أما الكثرة التي التَّحَفَّتْ الغفلة، وتجردت من حضور القلب، فهي جثة هامة بلا روح.

العمل الخالص

إن العمل الخالص لله عز وجل لندمع له العين، ويرق له القلب، وتصفو به الروح. وإن العمل الذي خالطه ما ليس لله، أورث صاحبه الهم والنكد. فإن لم تخلصوا فلا تتعبوا، ولا تتعبوا قبل أن تخلصوا.

طوبى للصادقين

اليأس ليس من شيم الصالحين، والقنوط من رحمة الله لم يكن يوماً مستوطناً لقلوب الصادقين، والعجز رداء لا يليق بأهل الإيمان واليقين.

وما الزيادة في شدة البلاء إلا لتمحيص القلوب، وإظهار مراتب الناس، وتفاوتهم في الصبر والثبات، وصدق المسير.

وهم في ذلك بين حدٍ أعلى، وهو ثبات القلب على مراد الله ثبات الجبال الرواسي، وحدٍ أدنى يمثله المتساقطون عند أول اختبار.

وبين الحدين يتفاوت الناس تفاوتاً عظيماً، فطوبى للصادقين المقربين، وهنينا لأصحاب اليمين.

صدمة!

إن من الصدمة أن تصادف إنسانا بسيطا لا يحسب له حساب بين الناس، له حال مع الله يؤهله لأن يسبقك إلى جنات النعيم، وأنت الذي تبذل وتجتهد وتتعب وتشقى، ولا تكاد تلتقط أنفاسك، وتحسب أنك على شيء. فحسنوا نياتكم، ورتبوا أولوياتكم، وسيروا إلى الله بلا ضجيج.

اختبار

إننا نختبر على الدوام، وكان حاجتنا للاختبار كحاجتنا للماء والهواء والغذاء، غير أن هنا مما تهواه النفس فاستطابته، وذاك مما قد ثقل لكن الصبر عليه يصقل فتقوى به الشوكة.

يقول أحدهم سألت الله أن يرزقني القوة، فلم يرزقني القوة ولكنه قدر لي مجموعة من الابتلاءات، وبعدها صبرت فصرت قويا.

فجزى الله ابتلاءاته وأقداره عنا خيرا، إنها تغذي فينا أرواحنا كما يغذي الطعام الجسد.

المقاومة إرهاب!!

يريدون إقناعنا أن المقاومة إرهاب، وأنها سبب كل هذا الدمار في غرّة. تبأ لهم، لم ولن نؤمن يوماً بهذا الهراء. قتلت فرنسا في أسبوع واحد 45 ألف جزائري، وما فعلته من جرائم في حق الشعب يفوق كل وصف، ورغم ذلك لم نؤمن إلا بشيء واحد:

وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرّجة تلقّ

حمل أبطالنا بنادق بدائية في وجه ترسانة عظمى من السلاح، وانتصر أبطالنا بقوة الايمان، وأجبروا فرنسا على الاعتراف بأن الجزائر جزائرية؛ إسلامية عربية ولم تكن يوماً فرنسية.

وهكذا هو طريق الحرية واسترداد الحقوق، لن يكون أبداً مفروشا بالورود، ولن يكون أبداً بالمفاوضات، ومن ظن ذلك فهو واهم. طريق الحرية يلزمه بندقية وشهيد وبحر من الدماء.

اعرف ربك

وإني كلما تأملت في هذه الحياة الدنيا وسلوك البشر فيها؛ أتعجب من حجم الغفلة التي خيَّمت على القلوب، وخصَّرت العقول، فلم تعد ترى إلا ما قد سعت فيه من شؤون هذه الحياة الفانية. ونسيَّت أنها في رحلة نهايتها وقوف بين يدي ملك الملوك، وملفاتٍ وحسابات، وما فعَل بالعمُر، والشباب، والمال، والعلم!

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع؛ عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه".

فلا تكاد تجد في فعل القوم ما يذكرك بالله ويحثك سعيا إليه. فهذا طالب العلم قد حصر نجاحه في أن يكون دكتورا حذقا، أو مهندسا نبيا، أو أستاذا ومحاضرا مفوها، يكسب مالا يؤمن به مستقبلا، ويعيش به عيشا رغيدا. وذاك التاجر يخطط ويتحين الفرص والمناسبات؛ لتزدهر فيها تجارته، وينتعث بيعه ويزداد رصيده من الأموال. وأولئك قد أهمتهم معيشتهم، وشغلتهم أرزاقهم وكيفية تحصيلها، فلم تترك لهم فرصة التفكير في غير ذلك. وذاك وذاك وذاك...

والناس في غفلة عن حقيقة وجودهم، وإن علموا ذلك. فإن سئل أحدهم لما نحن هنا؟ سيقول حتما: (لعبادة الله). فهل نعيش بهذه الحقيقة ولها؟ وهل مكناها منا حضورا في تفاصيل معيشتنا؟ أم أنها مجرد معرفة سطحية جعلناها على هامش الحياة، ولا يزال وجودها مبهما وضبابيا في حياتنا؟

وأياً كان تصرّف الناس حيال هذه الحقيقة؛ فستبقى قائمة بذاتها شاهدة على فعالهم، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. أما المُجِدُّون المُجْتَهِدُونَ في طريق الله، فهم العارِفون بربهم، الذين امتلأت قلوبهم حبا وشوقا إليه. فالحب وقودهم، والعلم بالله دليلهم، ويتفاوتون في الدرجات بقدر حبهم وشوقهم لخالقهم. يقول شيخ الإسلام: (أصل التفاضل بين الناس وتفاضلهم عند الله، إنما هو بمعرفة الله ومحبته، فإذا كان الناس يتفاضلون فيما يعرفون من المعروفات، فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته أعظم).

فبالسعادة العارفين بالله؛ لا تلههم عنه أموالهم وإن ملكوا الدنيا وما فيها، ولا يشغلهم عنه فقرهم وإن كانوا أعوز الناس وأحوجهم، ولا تقعدهم عنه أسقامهم وإن كانوا بأجساد متعبة متهاكلة، ولا تغرهم صحتهم وإن كانوا أشد الناس وأقواهم. فهم المشتاقون الذين عرفوا أنهم إلى فناء، وأنهم لا زالوا في رحلة منذ أن وُلدوا، ولا بد من يوم تُحطُّ فيه الرحال؛ إما في جنة وإما في نار.

يقول بعض العارفين: (إذا كملت معرفتك بالله، أورثت لك خوفا واحترافا للقلب، ولا وصول إلى سعادة لقاء الله في يوم القيامة إلا بمعرفة الله سبحانه وتعالى، والأنس به في الدنيا، ولا تحصل تلك المحبة لله إلا بمعرفة الله).

ولعل من هداهم الله بعد غفلة عنه؛ يتساءلون أن كيف السبيل إلى الله، فنخطوا بخطوات ثابتة لا يشوبها تردد ولا ارتجاف، فنسابق في طريق الله ونلحق بركب العابدين وأولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

وجواب تساؤلاتهم أن كيف للمحبة والشوق أن يتحرك في القلوب، إذا لم تشاهد جمال وجلال صفات المحبوب؟ فمعرفة الله هي أول خطوة نحو الحب والشوق والعبودية. يقول أحد العارفين: (المؤمن إذا عرف الله أحبه، وإذا أحبه أقبل على عبادته). فيا أيها المشتاقون إلى نعيم العبودية أقبلوا؛ فهاهي الأبواب قد فُتحت، ولا زالت آياته تنادىكم: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

وإن للمعرفة بابان، فمن ولجهما فقد عرف، ومن عرف فقد أحب، ومن أحب ألزمه حبه وأذاقه حقيقة العبودية.

أما الباب الأول؛ فهو النظر في مفعولاته، ومشاهدة آياته في مخلوقاته؛ وأما الباب الثاني؛ فهو تدبر كلامه عز وجل، والتفكير في أي القرآن الكريم تفكرا مورثا للخشية والعمل.

يقول صاحب الفوائد: (الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين؛ أحدهما النظر في مفعولاته، والثاني التفكير في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة)؛ فأطلق بصرك أيها المشتاق، وتأمل آيات ربك المشهودة. فتلك سماء رفعت، وتلك أرض بسطت، وتلك جبال نصبت، وما بينها عجب عجاب لو ترى عيناك، بل تدبر في مأكلك ومشربك، كيف اجتمعت القطرات والحبات من بلاد شتى، لتكون بين يديك رزقا كتبه الله لك منذ أن كنت في بطن أمك؟

بل تدبر في نفسك كيف شق بصرك وسمعك، ووهبك من
النعم ما تستقيم به حياتك؟ وانظر إلى لطف الله بك؛ إذ
يحميك من الأمراض والأسقام المتربصة بك.

وها هو مرض السرطان الخبيث الذي يقض مضاجع
المرضى، ويذهب راحتهم، يترصد لنا في اليوم مرات عديدة،
في دورة خلوية جعلها الله في أجسادنا؛ ولكن من رحمة
الله ولطفه أن جعل فيها نقاط تفتيش وحراس يقصون
كل خلية بها خلل، حتى لا تتحول إلى خلية سرطانية.

وما أكثر الأدلة في أنفسنا وفيما قد أحاط بنا والتي تظهر
عظمة الخالق ورحمته ولطفه وقدرته وصفاته!

فيا عجباً كيف يعصى الإله! أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية
وتسكينة أبداً شاهد
ولله في كل تحريكة

ثم أطلق فكرك أيها المشتاق في آيات الله المسموعة، واملأ قلبك بكلام حبيبك وممكنه منه، ولا تسألني بعدها عن نعيم القرب؛ فإنها والله لحظات لا تستبدل بكنوز الدنيا وملكها. قال أحد العارفين: (من عرف الله خرج من هذه الدنيا ولم يشبع من اثنين. قيل ما هما؟ قال: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه)؛ فأقبل أيها المشتاق أقبل، والحق بركب المحبين لا تُعَدُّ عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا. وارتو من نهر المحبة، إسق روحك منه، فتتير دربك، تحييك حياة طيبة في جنة عجلت لك في دنياك قبل آخرتك.

ويا عجبا للمحبين! إذا أحسوا بحجاب وجفوة بينهم وبين خالقهم؛ بكوا من البعاد، وإن فتح لهم باب إلى القرب وذاقوا من نعيمه ولذاته؛ بكوا خشية الطرد وزوال النعمة. فهم من بكاء إلى بكاء، وهذا هو حال المحب.

يبكي إن نأى شوقا إليه ويبكي إن دنا خوف الفراق

لا ترضَ بالدَّون

عندما أقلب مواقع التواصل الاجتماعي؛ كثيراً ما أصادف تلك المنشورات التي يشارك أصحابها كل لحظة، وكل حركة وسكينة لعباداتهم بالبقاع المقدسة. ولعل أحدهم استغرق أعواماً حتى جمع ما يؤدي به منسكه، فلما فتح الله عليه بهذه العبادة؛ صار يشارك تفاصيلها مع العالم كله فخراً وطلباً للثناء والشهرة.

وإن أعجب ما رأيت، تلك الحفلات التي تقام لمن أدى المنسك ثم تشارك مع القاصي والداني؛ فالكل عليه أن يعرف أن فلانا ابن فلان قد أدى منسكه، والكل عليه واجب الثناء ورفعته بين علية القوم، ومثلهم المتصدقون بأموالهم، الذين لا يرضيهم ولا يشبع رغبات نفوسهم إلا أن يقفوا بين أضواء الكاميرات، أو أن تشيع أسماؤهم بأنهم أصحاب الفضل في أعمال الخير والتطوع.

وما أعجب هذا الحال عندما نقارنه بما كان عليه سلفنا الصالح من إخلاص وصدق مع الله تعالى، وما ينجر عن ذلك من إخفاء العبادة خوف الوقوع في الفتن، وهم من هم في الاجتهاد والعلم والأدب مع الله. قال ابن القيم رحمه الله: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحث).

أما المخلصون لله حقاً فلا ينطلي عليهم كيد الشيطان وسطوة النفس؛ فقد علموا أن الضعف شيمة البشر وطبيعة فيهم، وإن كان في ظاهرهم من قوة العلم أو المال أو الجسد أو الجاه أو غير ذلك من متاع الدنيا. ولما تيقنوا من ذلك زهدوا فيما عند الخلق واكتفوا بربهم الذي بيده النفع والضرر، والرفع والوضع، والعطاء والمنع؛ فرفعهم الله درجات بإخلاصهم، ولم يُمْكِّنْ غيرهم مما طلبوه من رفعة عند البشر؛ بل زهدوا فيهم وأبغضوهم، وهل القلوب إلا بين أصبعين من أصابع الله يقبلها كيف يشاء!

قال صاحب الفوائد: (إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده؛ تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبه، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه؛ حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم).

فيا أيها المشتاق إلى ربك، ألزم نفسك الإخلاص، وتفقد أحوال قلبك في كل حين؛ لا يخدعك الشيطان فيزيّن لك ما عند الناس؛ فإنهم الجاهلون وإن علموا، والفقراء وإن ملكوا، والأدلاء بين يدي الله وإن اتصلوا بكل عزيز. فلا علم ولا ملك ولا جاه ولا قوة ولا عزة إلا لله الواحد القهار.

أيها السائر إلى مولك، اعرف نفسك، والزم حدك، وتأدب في حضرة ربك؛ لا تلتفتن إلى ما يشغلك عنه، واصدق الله بصدقك، ويكفك من عمك القليل.

قال عليه الصلاة والسلام: "يا معاذ، أخلص دينك يكفك القليل من العمل"، وإذا غاب الإخلاص لله في عمل العبد؛ فسيجعله الله هباءً منثوراً، وإن كان كأمثال الجبال. قال الله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾.

ومن بين الأمور المحزنات المبكيات، أنك إذا نصحت من ينشر أحواله من العبادة، يأتيك بألف حجة ليثبت أنه ينشر الفضيلة، ويشيع الخير بين الناس. عجباً! وهل تنشر الفضيلة بكشف العبد ما بينه وبين وربه؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فهل للعبد طاقة لمجاهدة نوازع النفس من حب الثناء والظهور والرفعة بين الناس؟

إن الواحد منا ليخشى من سطوة نفسه وهو في خلوته، فكيف به وعمله على رؤوس الأشهاد؟ قيل لأحد العارفين: (أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص)؛ فالإخلاص من أشق الأمور على النفس؛ لأنه يجبرها على عكس مرادها ورغباتها. فإن كان شاقاً في ذاته، فهو بكشف وإظهار الأعمال التي يمكن سترها أشق وأصعب على النفس.

ولقد فقهه السلف الصالح هذه الحقيقة، فلزموا لمّا عرفوا.
 يقول الحسن البصري رحمه الله: (إن كان الرجل جمع
 القرآن وما يشعر به الناس.... وإن كان الرجل فقه الفقه
 الكثير وما يشعر به الناس.... وإن كان الرجل ليصلي
 الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به...
 ولقد أدركت أقواما ما كانوا على عمل يقدر أن يعملوه
 في السر فيكون علانية أبدا).

ولأجل هذا كان الصادقون من سلف هذه الأمة أحرص
 الناس على الإخلاص، ولعلمهم بما جبلت عليه النفوس من
 حب الثناء والرفعة بين الخلق؛ أخفوا أعمالهم لتسهل
 عليهم المجاهدة، وإنها لأشق من جهاد العدو، وقد سماها
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد الأكبر.

ومن مظاهر غياب الإخلاص، الغلو في حب الصالحين
 والجماعات، حتى لا يرى ما فيهم من نقص وضعف
 وتقصير، وقد يتعدى الأمر إلى أن يكون الولاء لهم على
 حساب مبدأ من مبادئ الدين، أو سنة من سنته، وإن هنا من
 أعظم ما يبئلى به الناس فرادى وجماعات.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك فيه، وأنا منه بريء".

فهلّم أيها المشتاق وأقبل على مولك، وطلق الدنيا وما فيها ولا ترض بالدون، فلا زالت عبنا عليك في رحلتك حتى تزهد فيها وتوليها ظهرك. فإن فعلت فأبشر بكل خير؛ فإنك المحب الذي يشناق له كل حبيب، وتأنس به كل القلوب، ومن أخلص لله أحبه، ومن أحبه الله أحبه كل شيء.

يقول ابن القيم: (وقد جرت عادة الله التي لا تتبدل، وسنته التي لا تتحول، أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق، وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه، ويلبس المراني ثوب الزور من المقت والمهانة والبغض ما هو لائق به...).

اختر لنفسك مشهداً

مرّ المشهد سريعاً.. كنت فيه موسداً في ركن من البيت، وبعض أهلي يحدقون بي؛ لكن شغلي الشاغل كان تلك الوجوه المفزعة التي حلت ببיתי على حين غرة، واقتربت مني فزاد خوفاً وفزعاً.

شللٌ قد أصيبت به أطرافي؛ فلا قدرة لي على الفرار أو الصراخ. فزغٌ يلتهم روحي ويقطع أحشائي، وملك الموت يصرخ في: أيتها الروح الخبيثة، أخرجي إلى سخط من ربك! وأخذ ينتزع روحي كما ينزع سفود من صوف مبلول. عذابٌ ما بعده عذاب، تجرعتة حتى آخر لحظة من فراق الروح للجسد، ثم حُملت الروح المنتنة إلى السماء، ويا لهول ما لاقيت.

انتهى المشهد. لم أقدر على إتمامه لفضاعته، وغيبت وجهتي نحو مشهد آخر..

كنت أدير رأسي يمينا ويسرة في طمأنينة وسكون. إنهم أهلي وأحبابي اجتمعوا حولي، ها أنا ذا أرى دمعاتهم، وحسراتهم، وزفراتهم، وأستشعر آلامهم؛ لكنهم كانوا يبدون بصورة ضبابية، وكأنهم في واد وأنا في واد آخر، وكأنني مدبر راحل عنهم، بينما أرى بوضوح تلك الوجوه النيرة الوجيهة التي تملأ الروح سكينه وأمانا. يبدو أنهم يحملون شيئا معهم، تفوح منه رائحة لم أر مثل طيبها في حياتي، لقد عرفتهم، كان ذلك ملك الموت ومن معه من ملائكة الرحمة.

وأدرجت أنني راحل لا محالة، فمر شريط حياتي بين عيني سريعا، كانت فيه الكثير من الطاعات، وأخطاء كثيرة أيضا؛ لكن عزائي أنني كنت منكسرا طول الوقت، بعد كل خطأ ارتكبته، منييا إلى ربي عسى أن يخلصني من سطوة نفسي.

وبينما أنا كذلك إذ جاءتني البشرية من تلك المخلوقات النورانية، وكأنها عرفت ما يدور في خلدي:

{نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون}.

وأشرق وجهي وانتشت روحي وزال عني همها بعد هذه البشرية. وإذ بملك الموت يلبي أمر ربه، وأقبل عليّ يقبض روحي برفق ورحمة وهو يقول: أيتها النفس المطمئنة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.

كان شعور نزع الروح مهيباً لا يمكن وصفه، والعرق يتصبب مني صبا، شعرت حينها بالاستسلام والخضوع التام لأمر ربي، إنه أمر لا بد منه، ولست أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم وهو خير البشر، وقد تجرع من كأس المنية وهو يقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات.

وما هي إلا لحظات حتى صرت في عداد الموتى؛ جثة هامدة، وقد كنت من قبل فلانا ابن فلان. لقد كان يوم وفاتي مهيباً حزيناً مؤلماً لكثير من الخلق، افتقدني أهلي، افتقدني أحبابي، افتقدني من سمع عني ولم يرني، افتقدني مصلاي ومسجدي، افتقدني كل شيء.

فكم صلوات أدبيتها! وكم ليال بالقرآن أحبيتها! وكم نفوس جبرت كسرهما! وكم صدقات أخرجتها! كم مسحت على رأس يتيم! وأزحت ألما عن قلب حزين! كم دمعات ذرفتها لحال المسلمين المستضعفين في الأرض! وكم سعيت وبذلت لنصرة ديني وأمتي!

لقد كان الجميع يدعون لي بالرحمة والمغفرة، ويشهدون لي بأني كنت من أطيب الناس وخيرهم؛ ولكن الموت حق، ولا بد منه، ولا يسعهم إلا الصبر، ومواصلة طريق الجهاد والمجاهدة، إلى أن يجمعنا الله في فردوسه الأعلى.

أما في السماء، ويا لجلال السماء وأهلها، ويا لجمال تلك الرحلة من الأرض إلى السماء السابعة؛ أبواب تفتح، وأنفار من الملائكة سعداء فرحون بالقادم الجديد، يتحدثون عني بأجمل الأسماء والصفات وأحبها إلى قلبي. سعادة ما بعدها سعادة، ورحمة تغشاني، ويا لهيبة المشهد حين ارتقوا بي إلى أن أوصولني إلى ربي،

فقال عن روعي: ردوها إلى عبدي فإني منها خلقتهم. وفيها أعيدهم. ومن عظم النعيم الذي استشعرته في تلك الرحلة السماوية، صرّيت أستعجل من يمشي في جنازتي كي يحملوها سريعا إلى قبرها، حيث نعيم آخر ينتظرني هناك.

وأقبرني القوم ثم رحلوا وهم مطرقون يغشاهم الهم، كان ذلك شأنهم وأنا في شأن آخر. لم تكن أسئلة منكر ونكير عسيرة علي، فالله ربي ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي، وديني الإسلام، عليه حبيبت وعليه مت، وعليه سوف ألقى الله.

كان هذا كفيلاً بأن يجعل قبوري واسعاً مستنيراً، يأتيه من روح الجنة وريحانها ما الله به عليم، لقد كان قبوري روضتي ومستراحي أنام فيه كالعروس، يؤنسني قرآني وعملي الصالح المجدد شخصاً وضيئاً مشرق المحيا جميل الهيئة.

وانتهى المشهد تاركاً في نفسي حسن ظن بالله، وشوقاً
إليه، ورغبة فيما عنده، وزهداً في هذه الحياة الفانية.

فيا أيها المشتاق إلى ربك، اختر مشهداً يليق بك ترضاه
لنفسك، فما زالت الروح في الجسد، وفرص النجاة قائمة.

الموت باب وكل الناس داخله
يا ليت شعري بعد الموت ما السدار
الدار دار نعيم إن عملت بمــــا
يرضي الله وإن فرطت فالنــــار

لا تترك شعلتك تنطفئ!

الطريق مظلم، والشعاب موحشة؛ فأوقد شعلتك، ولا تسمح لها أن تنطفئ؛ فلا خيارٍ آخر يلوح في الأفق، إن أردت بالقوم لحاقاً، وبالقدم أن تطأ تربةً وطنك الذي تغرّبت عنه، حين أخرجت منه على أمل العودة.

أوقد شعلتك بالصلاة، حين تؤديها كاملة دون نقصان؛ قيامٌ وجل، وركوعٌ خاشع، وسجودٌ منكسر، وبين هذا وذاك قلبٌ غارق في بحر المحبة، يغتسل بماء الدمعات.

أوقد شعلتك بالقرآن، فبين ثنايا تلك الحروف نورٌ تتفجر ينابيعه فيك، كلما أوفيتها حقها من الاهتمام، وهفوت نحوها بقلب حي وسمع حاضر غير غائب.

أوقد شعلتك بالذكر، حين تبقي لسانك رطباً ندياً بترديد تسبيحة واستغفار، وحمد وشكر ودعاء. فما أخف تلك الكلمات، وما أعظم أثرها في تبديد الظلام!

أوقد شعلتك بالاقتراب من شعلةٍ أخرى في الطريق، فإن
خانتك شعلتك، استترت بتلك.

إنها الصحبة الصالحة التي تحتويك، وتأخذك معها في رحلة
النور، فاصبر نفسك معها، ولا تعدُ عيناك عنها، تريد زينة
الحياة الدنيا.

ثم أوقد شعلتك، عندما يشتد هواك، وتصبو نفسك نحو
رغائبها، فأنت حينئذ أمام فرصة عظيمة لاستجلاب النور.
انبح هواك، واقطع من نفسك ذاك الجناح، ولسان حالك: أحدٌ
أحد، بل الله الفرد الصمد.

فأبشر بعدها بفيضٍ من نور، تذوق حلاوته في قلبك، حلاوة
لا تضاهيها لذائد الدنيا وشهواتها.

وإن أوقدت شعلتك، فلا تنسَ أن تنير درب الحائرين، وتهدى
من ضلّت به السبل. فصاحب الشعلة والنور بين الناس رأس،
وفي البحر منارة، وفي الطريق هادٍ ودليلٌ لأمة.

فلا تترك شعلتك تنطفئ... أوقدها، وكن رأساً ومنارة، كن
هادياً ودليل أمة.

يومها ماذا نقول؟

عندما نقرأ القرآن الكريم بقلب حي لم تعكر صفوه الغضلات؛ فإنه سيبحر بالروح في المعاني الإيمانية، ويرتقي بها في مقامات العارفين بالله، المتنعمين بقربه ومحبه والشوق إليه، السائرين بين خوف ورجاء، الطامعين في رحمة خالقهم التي وسعت كل شيء، والخائفين الوجلين المشفقين من عذابه وغضبه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

عن عبد الله بن مسعود قال: (قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "اقرأ علي"، قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "نعم، إني أحب أن أسمع من غيري"، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا}، قال: "حسبك الآن" فإذا عيناه تدرقان).

جاء في تفسير السعدي رحمه الله: (ثم قال تعالى {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} أي كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحكم العظيم الذي جمع أن من حَكَمَ به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أذكى الخلق وهم الرسل على أممهم، مع إقرار المحكوم عليهم؟

فهنا والله الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها، وهناك يبقى المحكوم عليهم مُقَرِّين له لكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والصلاح والعزم والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين) انتهى كلامه رحمه الله.

حق لمن قرأ هذه الآية من المؤمنين أن ينخلع قلبه، ويسكب الدمع ويبكي على حاله، وهو لا يدري إلى أين؛ إلى جنة أم إلى نارٍ، وليس بحوزته خبر يقين بأن الله قد قبل منه عملاً واحداً من الأعمال الصالحة التي يجتهد فيها؟

فكيف بمن وطَّن نفسه في مقامات السوء والعصيان، وراح يرتع ويلعب وقد أحاطت به سيناته؛ فقيدت روحه مع الهمل والبهائم وحشرات الأرض، وغطت قلبه بدرنهما وأقنارها حتى صار أسود مربادا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا؟

كيف لنا جميعاً أن يهدأ لنا بال، ويصفو لنا حال، وأماننا يوم طويل يجعل الولدان شيبا، حين تنصب محكمة عظمى، الله قاضيها، بينما شهودها خير الخلق أنبياءه وأصفيائه؛ بل وشهودا من أنفسنا {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون}؟

فهل أعددنا للسؤال جواباً، وللجواب حجة وبيانا، ونحن الذين ليس منا أحد إلا وقد أصاب ذنبا أو حدثته نفسه به؟ يومها ماذا نقول؟

يوم تجثوا كل أمة
 في دياجير الملمة
 للسؤال عن المهمة
 هل أجبتكم الرسول؟
 يوم يأتي الناس وفدا
 وعظيم القوم عبدا
 هل ظننتم فيها خلدا
 وبقاء لا يزول
 يومها ماذا نقول؟

فيا عباد الله جدّوا فإن الأمر جدّ، وشمّروا فإن السفر بعيد،
 والزداد قليل. لا يفتننكم الشيطان عن دينكم، ولا
 تغوينكم الدنيا بزهوها ومتاعها، فإنها والله ظل زائل.

فاجعلوا هذه الحقيقة بين أعينكم وأنتم في سعة ومقدرة
 على البذل والعطاء في طريق الحق، قبل أن تنجلي فتروها
 بعين الحقيقة واليقين وقد غرغرت الروح وحان الفراق.

أسنة
الضياء